

قمر الفلاحين

د. خليل فاضل

قصة قصيرة

عند النهر توقفت الحمامة ونادى ابراهيم من الفضاء الخالك
الظلمة: -عم عبد البديع.. عم عبد البديع!!

من قلب الجزيرة المنحوتة من الظلام يندفع صوت واهن يرد
بالإيجاب- دون أن ترى- تضرب صفحة النهر مجاذيف القارب مندفعة
من الصمت... حتى الضفة الأخرى يقف عم عبد البديع. قصير
القامة. مهلهل الثياب. حافي القدمين. يجري إلى مصافحاً. نركب
القارب جميعاً. بالحمامة الساكنة. ولكن يأبى القارب أن يسير.

وغطس الرجل بملابسه تحت القارب وكان ظهره تحته مباشرة. عبر النهر
وبعرضه، مشى على القاع القريب غائصاً تتلأأقطرات النهر من وجهه..
تلمع من وجه القمر الصامت.

-التعب يهون يا طبيب. لكن المهم يشفى المريض!

ومضى ركبنا وسط منحدرات الجزيرة الطينية. فوق
القنوت والجداول. يحكى ابراهيم عن المعسكر وطبيب
الوحدة العسكرية والشمس الحامية الوطأة. التعيين
الغذائي... والتدريب.

* * *

عند كوخ من البوص، قائم في نهاية الأرض المزروعة وسط النهر،
وعند بداية المنطقة الرملية التي تشبه إلى حد كبير شواطئ المصيف.

راقدة على ظهرها على الأرض.

في غيبوبة الحمى المرتفعة جداً.

تفريق للحظات.

تعي من حولها وتنادي بلهفة:

في تلك الليلة بزغ القمر يفرش ضوءه الشاحب فوق الجزيرة وسط النيل،
وفوق القرى المتناثرة على الضفة الشرقية للنهر، قرب معابد نفرتيتي واخناتون
وماكينه ضخ المياه الأهلية الوحيدة.

يفرش ضوءه الحزين فوق الخضرة والطين والرمال.. والصخر والبيوت
الواطية.. فوق الوجوه الكالحة المصفرة وقطعان الماعز والعجفاء الرابضة
كعلامة على الطريق.. فوق المواشى والطيور والأطفال والكلاب
الضالة.. والبنادق، والنسوة والبنات والصبيان.. وهمس اعواد الذرة في
حوارها الأصم مع ربح الجبل الصيفية.

يفرش ضوءه المريض باتجاه الاتساع الجنوبي للقرية والكائن بين الجمعية
الزراعية والوحدة الصحية. البنائتان الوحيدتان المبنيتان بالطوب الأحمر
والطلاء الجيري.. فقط نقطة البوليس تشاركها هذه الميزة.

في زي الكاكي المعفر بغبار قطار الصعيد القاسي توقف أمامي قائلاً:

نشوف يا دكتور.. أنا عارف ان الطريق للجزيرة وعرة لكن
أختي تعبانة.. معي تصريح بـ٢٤ ساعة. أخذته بالعافية
من البيك الضابط... ممكن ترافقني؟!

.....

ما تحمل همّ يا دكتور. الحمامة موجودة
تركبها لحدّ البحر وهناك نكمل...

امتطيت ظهر الحمامة، تلفحني نسيمات الصيف الباردة. كان (ابراهيم)
يقود الحمامة من الأمام. يتقاذف بحذائه العسكري الضخم. يضرها على
عنقها تارة، ويلكزها في مؤخرتها تارة أخرى. يتبعه زوج أخته وأخوه
حافيين، تغوص اقدامهما في الوحل؛ فتعطي فورتها لبرودة الطين، يتناثر
رذاذ مياه الري على سيقان الحمامة.. فتجري.

- خوي .. براهيم .. جيت؟! -

ظهره .

قامت أم الخير مع وليدها لتسجل اسمها برعاية الأمومة والطفولة بالوحدة الصحية. سألت الست سيادة عن سبب حزنها وشحوبها فردت:

-زوجي غاب في الاستدعاء الأخير.

-ربنا يستر .

-الحرب قامت .

-اللحمة تمنا زاد .

-الصراف منتظر عند البيك الكبير .

-سيد أبو عبد الله شتم الحكومة اليوم . .

-فوزي افندي الميكانيكي الفني والعمال والخفر عملوا اضراب ف الصحرا لزيادة الأجور . المسكن وقف . والأرض عطشانة . . والزرع هيموت . .

* * *

يجري من عند الضفة الشرقية للنهر . من فوق ظهر المركب الذي رسا لتوه . يجري عبد الرسول مسئول الدفاع المدني ، وجهه متغضن وملاحه حزينة . يصافح الحاج قائلاً:

-البقية ف حياتك يا حاج! ابراهيم مات شهيد . .

يا بوي .. يا خوي ..

وقفت القرية كلها . صغارها وكبارها . رجالها ونساؤها .

العمدة والصول وشيخ الخفر والطبيب وناس من الحكومة
ودفنوا جثة ابراهيم .

في الصباح الباكر مشت النسوة بملابهن السوداء في صف طويل طويل . .

ينتجن ويولون بنغم ممطوط غير مفهوم . .

يشق الجبل نصفين . .

صلوا صلاة الشهداء .

كبروا وهمموا

.....

دس الأب العجوز شهادة وفاة ولده في جيبه ملتاعا:

-عيلة كمال بك مش هت حضر السنة دي للجزيرة . قالوا فتحواهم شاليهات السويس . . والسفن كلها عم بتمر حتى بتاع

لم يرد وانما نظر إلي .

المرأة الراقدة تتفصد عرقاً .

ترفض أن أكشف عنها بمنطقة الولادة .

تسأل الإذن من أخيها .

زوجها مسلوب التعبير . واجم . صامت .

العرق أحمر بلون الطمي .

ولدت أول أمس .

ولدتها القابلة القانونية (تفيدة) . قالت إن الوليد كان وضعه سيئاً وأنه جروحاً نجمت عن الولادة داوتها تفيدة بتراب الفرن .

تشحب الوالدة مع بطء تنفسها اللاهث .

تندرج رؤى النهر والقتال والقمر والحمار والزرع الأخضر في لحظة ل .

تراب الفرن .

تصريح الجيش .

[جَمَى نَفَاسٍ وَتَقَيَّحَ تَنَاسِلِي حَادًا]

ينظر إلي الزوج و ابراهيم . يتصبان عرقا . يرتعشان . يسألان في موت واحد:

هتعيش!

ربنا يسهل .

يحفف ابراهيم عرقه . يحدق في أخته ويتمتم:

-اذا تخلفت عن موعد التصريح . فلن ترحمي الشرطة العسكرية .

* * *

بعد اسعاف (أم الخير) جلسنا فوق طبلية العشاء على حافة النهر . قال لأب العجوز مبتسما:

يا الصيف يجيء (كمال بك) ل هنا مع زوجته اللي بتقرفم الفلاحين ، معاهم شمسية ومسجل وأغاني . .

شربت الشاي الأسود في صمت .

تناثرت قطع الطين الأحمر على سيقان الحمار .

انحنى ظهر عم عبد البديع وهو يغوص حاملاً القارب بما فيه فوق

بالكوم عند كمال افندي . .
الخواجات ما يا كلهوش .
الخواجات ما يفلسوش واصل .
ما يفلسوش .

اليهود . .
انكسرت زجاجة لمبة الغاز .
هبت رياح الخماسين ، تقذف بالرمل الأحمر الأصفر في العيون . .
فتحمرّ وتدمع وتغشى . .

* * *

غنىّ الأولاد في المساحة المتسعة بين الوحدة الصحية والجمعية
الزراعية .

«الفلاحين

بيغيروا الكتاني بالكاكي

ويغيروا الكاكي بتوب الدم

وبيزرعوك يا قطن ويا السناكي

وبيزرعوك يا قمح سارية علم

وبيدخلوك يا حرب فحم الحريقة

وبيزرعوك يا مصر شمس الحقيقة»

شمس الصعيد الحامية الملتهبة المخضبة بدماء الشهداء . .

شهداء عصارة القصب وترعة الحكومة ووابور البحر المجرم . . .

توقف (اللنش) الكهربى الفخم الملون ذو الموتور الهائل بجوار قارب
عم عبد البديع المريض المرتعش ، وبجوار المعدية المشروخة والتي يركبها
سكان ثلاث قرى .

هبط منه الشيخ بركات مسئول الاتحاد الاشتراكي والسواح
الأمريكان

جمع الأولاد الطين في حجورهم المهلهلة .

جروا حفاة متشققى الأقدام ، كالحي الوجوه ، يقذفون السواح
البيض الحمر الوجوه بالطوب ، ينهرهم الشيخ بركات . يعودون .
يختبئون بين أعواد الذرة في همسها الفج مع ريح الجبل .

(الخواجة فلس . . من أكل المدمس)

....

خرجت أم الخير وبهجة وسليمة يتفرجون على الخواجات . وقفوا . .
سدّوا عنهم عين الشمس .

قالت الحاجة سليمة الشمطاء الطيبة بصوت عال :

يا ولاد ال . . . المدمس غالي . .

ذبح كمال بيك العجل الصغير . وبعض أزواج الحمام . ودعاهم
لتشريف قبور الأجداد . نفرتيتي واخناتون . . وآخرون لا نعلمهم . الله
يعلمهم . . وما تخفي الصدور .

القاهرة

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

● ماركسية القرن العشرين ترجمة نزيه الحكيم

● منعطف الاشتراكية الكبير ترجمة ذوقان قرقوط

● البديل ترجمة جورج طرابيشي

● مشروع الامل

صدر حديثاً